تنخلق في الصراع، وتتجدّد فيه وبه، وفي التجدد تأخذ سمة جديدة، وأصولاً اجتماعية جديدة، وعندها تأخذ الهوية معناها في التاريخ، وتسمو إلى دلالته، أي تصبح كما يجب أن تكون. وفي هذه الدراسة، سنقرأ «سحر» في تحولاتها، وفي مسار كتابتها في رواياتها الثلاث.

لم نعد جواري لكم: الجوهري والهامشي

رواية أولى وبداية، حاولت سحر فيها أن تبني إشكالية محدودة تتضمن جملة مستويات بسيطة، والإشكالية هي: وضع المرأة الباحثة عن تحررها، والقيود الاجتماعية التي تكبح هذا التحرر، وتدفع بالمرأة إلى مآساتها «الخاصة».

منذ السطور الأولى، نكتشف ضيق الإشكالية، أو نتعرّف على الوعي المحدود الذي يطرحها: تبحث المرأة عن تحررها بمعزل عن مجتمع يرزح تحت الاحتلال من ناحية، ويحمل تراثاً تاريخياً يحكم وعي المرأة والرجل من ناحية ثانية. وعندما تنسى المرأة الباحثة عن تحررها هموم الوطن وتراث التاريخ، فإن بحثها لا يقود إلا إلى الوهم والطريق المسدود. لا تطرح سحر، في روايتها، أوهام المرأة الباحثة عن التحرر بمعزل عن هموم الوطن، بل تتبنى هذا الوهم وتقيم عليه روايتها، وفي هذا الوهم ترجم الرجل بدل أن تطرح الإشكالية الاجتماعية التي تكبح تحرر الرجل: «علي أن أختار بين عبودية الفن، وعبودية الرجل! والفن عبودية تقود إلى الحرية أما عبودية الرجل فمذلة وانكسار» (ص ٧) ، «لا، لن أرضى بهذا، يجب أن تثور المرأة على هذا الوضع، وأن ترفضه. إن مجرد الشكوى لا يجدي شيئاً» (ص٧)، «وهذه البلاد لا تحتوي إلا رجالاً يحلمون بإناث يحبلن ويلدن، ويحشين ورق العنب» (ص ٣٨).

تحدد السطور السابقة شكل الطرح الذي تتعامل معه سحر خليفة، والهمّ الاجتماعي الذي تنطلق منه، فالمرأة في زمن الاحتلال ليس أمامها إلا «الرجل أو الفن»، وعندما تختار عبودية الفن تبدأ نضالها ضد الرجل الذي يحرمها وجودها الانساني. عندما نقرأ رواية سحر في عمومها الهامشية أو الناقصة، ندرك أن كاتبتنا قد ألغت الوطن بمحاة المرأة، أو أنها احتفظت بالوطن، لكنها أعطت تحرر المرأة مكان الأولوية، أي أنها لم تبدأ بجوهر الزمن الفلسطيني، بل ذهبت أو تاهت في استطالات هامشية. وإذا كانت البداية الروائية هامشية، فإن تطور البداية لن يكون إلا هامشياً بدوره، لذلك فإن رواية سحر تطلق مجموعة من العلاقات الاجتماعية المحدودة: مثقفون وأشباه مثقفين يتحركون في عوالم ميسورة، ولا يلهجون بمسائل الوطن لأنهم يغرقون في مشاكلهم الذاتية، وإذا تطرقوا في حديثهم إليه فإن دلالته لن تجاوز أطراف الحديث. مع ذلك، فإن القارىء يظن، أن الرواية تقارب مستويات متعددة: مشاكل العيش والسفر والهجرة، لكن هذا الظن سرعان ما ينقشع، عندما يقرأ من جديد وضع الوطن في الرواية. فالأساسي هو العلاقات الهامشية، وما الوطن إلا غلاف خارجي محدود الدلالة، أو مكان محايد يجري فوقه الحدث الروائي، وقد تتراجع سمات الوطن حتى يقارب الوطن في غيابه دلالة المكان السياحي. ربما تقول الرواية إن الوطن حاضر في شخصية «عبد الرحمن» الرسام المناضل، لكن غموض «البطل»